القراءة النسقية للتراث النقدي والبلاغي

– جابر عصفور نموذجا –

الأستاذ عبد الرحمان إكدير

جامعة القاضي عياض / مراكش. /**المغرب**

- **قراءة النص وتأويله :**

تعتبر القراءة من أكثر المصطلحات ذيوعا وانتشارا في الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة، فهي كما يرى كثير من النقاد، عملية معقدة وشائكة، تشبه تعقيد إنتاج النصوص وإبداعها، بل إن امتدادات هذا المفهوم في الحقول المعرفية الأخرى جعل استجلاءه في غاية الصعوبة، "فليست القراءة عند الباحثين المعاصرين ذلك الفعل البسيط الذي نمرر به البصر على السطور، وليست هي أيضا بالقراءة التقبلية التي نكتفي فيها عادة بتلقي الخطاب تلقيا سلبيا اعتقادا منا أن معنى النص قد صيغ نهائيا وحدد، ولم يبق إلا العثور عليه كما هو، أو كما كان في ذهن الكاتب. إن القراءة عندهم أشبه ما تكون بقراءة الفلاسفة للوجود، إنها فعل خلاق يقرب الرمز من الرمز ويضم العلاقة إلى العلاقة، وسير في دروب ملتوية جدا من الدلالات نصادفها حينا ونتوهمها حينا فنختلقها اختلاقا"[1]. يتضح من تعريف محمد مبارك لهذا المصطلح، أنه يتسم بصعوبة تحديده والإحاطة بدلالاته، إن القراءة نشاط متعدد الوجوه وذات أبعاد كثيرة، "فقد تكون من فرد لفرد، ينتسب كلاهما إلى نفس الحضارة، قراءة الحاضر للماضي، تواصلا للتراث مثل قراءة ابن رشد للفارابي وابن سينا، وقراءة أرسطو لأفلاطون (..) وقراءة هيدجر لكانط ونيتشه وهوسرل ...إلخ، وفي هذه الحالة تكون القراءة تصحيحا وتجديدا لروح العصر عن طريق التأويل، وقد تكون القراءة من فرد ينتسب إلى حضارة لفرد آخر ينتسب إلى حضارة

[1] **محمد مبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1999، ص 28.**

مغايرة، أو قراءة الحاضر للماضي كتواصل بين الحضارات مثل قراءة ابن رشد لأرسطو"[2]، وبالتالي فإن القراءة عمل فردي داخل كل حضارة من جهة، وعمل جماعي بين الحضارات من جهة ثانية، وبناء على ذلك فإن القراءة هي إعادة بناء المقروء طبقا لتصور القارئ فردا أو جماعة من أجل إكمال البنية أو اكتشاف القانون. وقد اعتبر جادمير **Gadamer** القراءة "تجربة وجودية مع النص المقروء، فمن خلالها لا تتجلى الحقيقة كمضمون في ذاته ولذاته، بل ككشف وانفتاح جديد على العالم"[3]، وإلا فستكون القراءة غير الموجهة تحصيل حاصل لا تؤدي إلى معنى، لأن القارئ يقرأ من غير أن يوجه النص نحو معنى معين لتحقيق هدف، فالمعنى هدف قبل التحقق، والهدف معنى متحقق، القراءة إذن موقف، والقارئ صاحب موقف[4]، إذ إن قراءة النص تختلف من قارئ إلى قارئ، ولعل قراءة النص الواحد تختلف من حين إلى حين، وأن ما تتطلبه قراءة لا تتطلبه قراءة أخرى، وهذا ما يجعلنا أمام قراءات تختلف باختلاف المرجعيات والأسس النظرية خصوصا إذا كان هذا النص غير معاصر للقارئ، بينهما هوة زمنية قد تمتد عقودا أو قرونا. "فالقراءات مهما تباينت أنواعها وتفاوتت مستوياتها تستضيف النص في ضوء قناعة مؤداها أن فضاء النص رحب، وأن قراره سحيق، ولقد قيل أن الكلمة في النص أبعد من قامتها، وتستذكر أكثر من طاقتها على قراءة الماضي والهجس بالمستقبل"[5]، فالنصوص لها خاصية جوهرية وهي قابليتها على الدوام لأن تقرأ في كل العصور من خلال زوايا متعددة وبأوجه جديدة، وهذا ما يجعل بعض النقاد يدعون إلى ضرورة استبدال : علاقة القراءة بالفهم بعلاقة القراءة بالتأويل.

وهكذا فالتأويل عملية جوهرية تمثل أهم مرتكز في قراءة النصوص "فالنص كيف ما كانت طبيعته يظل مجالا لتعدد القراءات، والنصوص التي تتميز بانفتاحها الدلالي، تظل منفتحة على عدد لا منته من القراءات

---

[2] حسن حنفي، قراءة النص، مجلة ألف، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 2، 1993، ص 10.

[3] حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003، ص 295.

[4] حسن حنفي، قراءة النص، ص 22.

[5] قاسم المومني، علاقة النص بصاحبه ،دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 25، أبريل 1998، ص 116.

الممكنة"[6]. إن تأويل النص يطرح جملة من الإشكالات المرتبطة بالكشف عن مقصدية المؤلف، وظروف الإنتاج، دون أن نغفل قدرة القارئ المؤول في الغوص في أعماق هذا النص والبحث عن أسراره وخباياه، وما يترتب عن ذلك من تجاذب بين الموضوعي والذاتي. ولتجاوز هذه المعضلة حاولت مدرسة كونستانس الألمانية البحث في الموضوع، ووضع تصورات نظرية في آليات القراءة والتلقي. وفي ظل هذه النظرية غدت القراءة فعلا متحركا وشكلا من أشكال الأخذ والعطاء وحوارا بين القارئ والنص.

لقد فسحت نظرية القراءة والتلقي آفاقا جديدة في مجال النقد الأدبي، وأعادت الاعتبار إلى "القارئ" أحد أبرز عناصر الخطاب الأدبي والنقدي، إذ لم يعد دوره سلبيا مقتصرا على استهلاك النص، بل أصبح هذا القارئ مشاركا في صنع النص، وسينظر إلى المعنى في نظرية القراءة المعاصرة على أنه نتيجة للقاء بين نصين: النص المقروء ونص القارئ، وهذا يفضي بلا شك إلى دلالات لا نهائية تسمح بالتأويل في دائرة لا ينغلق فيها النص بل يتجدد مع كل قراءة.

- **قراءة المحدثين للتراث النقدي والبلاغي :**

انكب الدارسون المحدثون على قراءة التراث العربي في النقد والبلاغة إيمانا منهم بما يتضمنه هذا التراث من مؤلفات ذات أهمية قصوى وما تزخر به من أفكار وتصورات متميزة. ويمكننا أن نميز في قراءة المحدثين للتراث من حيث الموضوع، بين الاتجاهات التالية :

- قراءة تركز على قضية بعينها من بين القضايا النقدية القديمة (كاللفظ والمعنى، أو السرقات، أو القديم والمحدث، أو غيرها من القضايا).

---

[6] Umberto Eco, Les limites de l' interprétation, traduction de Myriem Bouzaher , Bernard Grasset, 1992 , p 130

- **قراءة تسلط الضوء حول شخصية نقدية أو بلاغية قديمة، إذ يحاول القارئ تتبع الفكر النقدي لهذه الشخصية، واستعراض آرائها، وكيفية تناولها لقضايا النقد والبلاغة.**
- **قراءة تتمحور حول التراث النقدي والبلاغي في كليته وشموليته، تبحث في التصورات النظرية والتطبيقية وما يتصل بها من قضايا نقدية.**

ويندرج هذا البحث ضمن الاتجاه الأخير، حيث نسعى من خلال هذه الدراسة إلى البحث في قراءة المحدثين للتراث النقدي والبلاغي ودراسة تصوراتهم ومناهجهم. واخترنا قراءة جابر عصفور نموذجا لهذه الدراسة، نظرا لقيمته ومكانته في الثقافة العربية بصفة عامة، والنقد الأدبي بصفة خاصة، ولاهتمامه بقضايا التراث النقدي والبلاغي ولغزارة كتاباته في هذا المجال، ولأن الرجل منفتح على النظريات النقدية المعاصرة ترجمة وتأليفا، وتتأكد هذه القيمة أكثر، بالنظر إلى رجوع عدد من المؤلفين البارزين والباحثين المهتمين بقضايا التراث إلى كتاباته و دراساته.

لقد اتسمت قراءة جابر عصفور لهذا التراث بالنسقية والإحاطة الشمولية التي أفرزت تلك نصوص وأنتجته، وهكذا نجد قراءته تربط النصوص بمختلف الأنساق المعرفية، في محاولة جريئة لا تتوقف عند حدود التلقي المباشر السلبي أو عند حدود الاجترار والإبلاغ، بل تساهم في إنتاج وجهة النظر وإنتاج تفسيرات، وتسعى إلى إعادة بناء ذلك الخطاب، وكشف المسكوت عنه.

• القراءة النسقية للتراث النقدي والبلاغي :

يحدد جابر عصفور المستويات العلائقية في حدث القراءة إلى أربع مستويات :

- **علاقة القارئ بما يتناص معه تراثه المقروء، حيث الحضور الآني لهذا المقروء في وعي القارئ بوصفه حضورا مقترنا بالشعور.**

- **علاقة هذا القارئ (المتصل بتراثه المنسوب في وعيه) بالأنساق المعرفية في عصر القراءة، أي بأدوات إنتاجها للمعرفة وعلاقتها.**
- **علاقة المقروء نفسه بنسقه في عصر إنتاجه، من حيث ما يتضمنه من حضور خاص بتاريخ وأدوات إنتاج المقروء وليس القارئ.**
- **علاقة المقروء، في نسقه، بغيره من الأنساق المعاصرة أو السابقة أو اللاحقة بما فيها أنساق القارئ نفسه[7].**

وهذه المستويات تشي بما يرومه جابر عصفور ويسعى إليه في قراءته للتراث قراءة نسقية، وينطلق في ذلك من مبدأ مؤداه أن كل نص من نصوص التراث النقدي والبلاغي لا يمكن أن يُقرأ بمعزل عن غيره من النصوص، ويعتبر التراث النقدي وحدة سياقية داخل وحدة سياقية أوسع وهي التراث كله، كما لا يمكن عزل هذه النصوص النقدية عن باقي المعارف والعلوم، "فالتراث ليس مجموعة من الجزر المعرفية المنفصلة، التي لا يلتقي فيها النقد الأدبي والفلسفة، أو الفلسفة والتفسير، إن الحال على الضد من ذلك تماما، حين نتأمل الحضور التاريخي للتراث النقدي داخل التراث العام، أو حتى الحضور التاريخي لأي حقل آخر، داخل شبكة الحقول الأوسع التي يتكون منها التراث. صحيح أنها حقول مستقلة نسبيا، داخل مجالاتها التاريخية، ولكن نسبيتها قرينة حضورها العلائقي المشتبك بحضور غيرها. على نحو يغدو معه حضور التراث النقدي داخل التراث العام أشبه بحضور عروق الرخام التي تنسرب في المسطح كله، فلا يمكن فصلها عنه أو انتزاعها منه إلا بتحطيم اللوح أو تشويه هذه العروق، والتراث النقدي لا ينفصل عن غيره من الحقول المعرفية من ناحية، وعن التيارات الفكرية الكبرى التي يدور في فلكها هو وغيره من الحقول المعرفية من ناحية ثانية"[8]، يعتبر جابر عصفور في هذا النص أنه من الضروري النظر إلى النصوص المقروءة داخل علاقاتها وسياقاتها، باعتبار أن هذا

---

[7] جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 1994، ص 70.

[8] نفسه، صص 49 – 50.

التراث هو بناء لا يقبل التجزؤ، ولا معنى للأجزاء فيه بعيدا عن العلاقات الكلية للبناء. "ومن المفيد – والأمر كذلك – أن نضع قراءة التراث في علاقة مع بقية قراءات حقول التراث الأخرى، لكي نتعمق فهم الوحدة المنهجية للقراءة والوحدة العلائقية للموضوع المقروء معا، ونرصد ما يترتب على هاتين الوحدتين المتكاملتين من نتائج إيجابية لا يتوقف تأثيرها على حدود التراث النقدي في حقله الخاص وحده، بل يتعداه إلى كل الحقول، حيث ينسرب الحضور الكلي لإشكالية التراث في حياتنا المعاصرة"[9].

لقد ذهب جابر عصفور إلى أن كل قراءة للتراث النقدي تتغافل تلك الأنساق والحقول المعرفية التي تتأثر به ويتأثر بها، هي قراءة ناقصة غير ناجعة، تؤدي إلى نظرة جزئية، وتحرم القراءة من زاوية كبرى تسع معها حدقتا العينين في الرؤية، "ومن يستطيع أن يفصل النقد الأدبي – في تراثنا – عن (علوم الأوائل) خاصة الفلسفة ابتداء من المنطق ومرورا بالسياسة المدنية والأخلاق وانتهاء بما بعد الطبيعة، أو يفصل هذا النقد عن العلوم العربية الخالصة في المجالات اللغوية التي تتضمن النحو والدلالة والعروض، أو يفصل هذا النقد نفسه عن علم الكلام أو العلوم الدينية، حيث تفسير القرآن وشروح الأحاديث والمقدمات الأصولية للفقه. وهناك فضلا عما لم أذكره من علوم الرواية والدراية ما يرد من نقد أدبي، أو يدخل ضمن تصنيفه في الآداب الشعبية أو الرسمية، أو في التأصيل النظري للفنون الموازية، حيث علاقة الأدب بالموسيقى والغناء (السماع) والنسج والرسم والعمارة، أضف إلى ذلك التفاعل بين النقد الأدبي القديم والتيارات الفكرية الكبرى"[10]. وقد طبق جابر عصفور هذه المقاربة في جل دراساته، خصوصا في(الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) 1973، وفي (مفهوم الشعر – دراسة في التراث النقدي) 1977.

أ– الدراسة الأولى : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب

[9] جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 52.

[10] نفسه، ص 50.

تعد هذه الدراسة من الدراسات السباقة في مقاربتها للتراث النقدي والبلاغي مقاربة نسقية، حيث خص هذه الدراسة لتسليط الضوء على (الصورة الفنية) في تراثنا النقدي والبلاغي، وتعامل مع هذا الموضوع من خلال النظر في علاقاته المتفاعلة مع باقي العلوم والمعارف، والتي ساهمت في إغناء هذا الموضوع، مثل ربطه بالفلسفة وعلم الكلام واللغة والتفسير، يقول في هذا الصدد: "ومما حتم ذلك التعامل أن المنظرين الأساسيين للنقد والبلاغة العربية كانوا من المتكلمين والصلة بين المتكلمين والفلاسفة صلة وثيقة، فضلا على أنهم كانوا علماء لغة أو تفسير بارزين، ولا أدل على ذلك من الجاحظ والرماني والزمخشري المعتزليين، وعبد القاهر والباقلاني الأشعريين، كما أن ناقدا جليلا مثل حازم القرطاجني لا يمكن تعمق تصوره لعملية التخييل الشعري، وفهم حديثه عن (الصورة الذهنية)، دون الرجوع إلى أصوله الفلسفية التي أفادها من الفارابي وابن سينا وابن رشد، سواء في مباحثهم عن النفس، أو شروحهم لكتب أرسطو"[11]، ويصرح – جابر – أن هذه المقاربة مكنته من تسليط الضوء على مفهوم الصورة الفنية والتعرف على أصوله وامتداداته، كما أتاحت له هذه النظرة التعرف على جوانب ثرية في تراثنا.

فخصص مبحثا تناول فيه البيئات التي أسهمت في توضيح الأصول الأولى لمبحث الأنواع البلاغية للصورة الفنية، بل اعتبر هذه البيئات هي التي أرست الدعامات الأولى التي قام عليها التراث البلاغي والنقدي كله، وهي : بيئة اللغويين، وبيئة المتكلمين، وبيئة الفلاسفة.

ويعتبر أن البيئة الأولى هي الأقدم زمنيا منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة بفضل علماء اللغة كأبي عمر بن العلاء (145هـ) والخليل بن أحمد (175هـ) وسيبويه (180هـ) ويونس بن حبيب (182هـ)، وقد مهدت جهود هؤلاء الطريق أمام غيرهم وخاصة المتكلمين، أما البيئة الثانية، "فهي تبدأ أساسا بجهود المعتزلة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وما صاحب هذه الجهود من دراسات لموضوعات البلاغة وقضايا

---

[11] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1992، ص 11.

النقد، ولقد تبلورت الدراسة البلاغية عند المعتزلة نتيجة عاملين كبيرين: أما أولهما فيتصل بدراسة القرآن نفسه، وتبين حقيقة إعجازه ونظمه ... أما العامل الثاني فيتصل بالغاية من تعلم البلاغة نفسها، فالبلاغة عندهم عنصر هام في الإقناع الذي هو غاية الجدل الكلامي"[12].

أما البيئة الثالثة، فيشير جابر عصفور للصلة الوثيقة بين الفلاسفة والمتكلمين منذ الكندي (252هـ) صاحب تلخيص كتاب الشعر لأرسطو، فقد عمل هؤلاء الفلاسفة على طرح آراء ذات أهمية قصوى خصوصا فيما يتصل بالقضايا الشعر والخطابة.

إضافة إلى هذه البيئات، نجد في ثنايا هذه الدراسة بعض الحقول المعرفية الأخرى التي استعان بها جابر في معالجته لهذا الموضوع ، من ذلك :

- **علم النفس :**

وقد تطرق لهذا العلم في معرض حديثه عن التخييل، وأشار على أن هذه الكلمة كانت تستخدم للإشارة إلى بعض الظواهر النفسية التي يمكن إدراجها تحت ما نسميه الآن بسيكولوجية الإدراك وذلك لأن الكلمة كانت تستخدم للإشارة إلى عمليات التوهم، وما يتصل بها من تشكل الأوهام الكاذبة في النفس، بفعل مخادعة الأشخاص، أو بتأثير الخوف أو المرض"[13].

- **التصوف :**

قدم المتصوفة أفكارا مهمة حول موضوع الخيال، والتي أحدثت انقلابا في التفكير النقدي والبلاغي وغيرت من طبيعة النظرة العدائية إلى الخيال الشعري، "إن الخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوع مهم من المعرفة، وينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية، التي لا يصل إليها دور العقل الصارم للفيلسوف، ولا

---

[12] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، صص 100 – 101.

[13] نفسه، ص 16.

يقترب منها ذهن الرجل العادي المنصرف إلى الظواهر والأعراض الزائلة والطارئة"[14]، ويشير جابر في هذا الصدد لما قدمه ابن عربي في الموضوع، فنظرة المتصوفة للخيال، عموما، ساهمت في إغناء الحقل النقدي والبلاغي وفتحت آفاقا رحبة في كشف عمق تلك العلاقات.

- الموسيقى :

ربط جابر عصفور مسألة الإيقاع في الشعر وتناسب الوزن بالحقل الموسيقي، وقد تتبع ذلك عند حازم القرطاجني في مواطن عديدة، يقول : "ومادام الأساس واحدا في إيقاع الشعر وإيقاع النغم، فمن الممكن أن يشكل حازم تصوره للوزن الشعري غير مفارق للأصول الأساسية في علم الموسيقى الذي كان يعرفه"[15].

ب- الدراسة الثانية : مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي

تناول جابر عصفور مفهوم الشعر في التراث النقدي وفق دراسة نسقية شاملة تحيط بالمفهوم المزمع دراسته من كل جوانبه، وربطه بسياقاته الخاصة التي تمخض عنها، وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب "وهناك تصورات بالغة الخطورة، تكمل جوانب تراث نقد الشعر، وتعدل من تصوراتنا عنه، يمكن أن نجدها في تفاسير القرآن الكريم وشرح الأحاديث وكتب الفقه والأصول، خاصة حين ترد المقارنة بين القرآن والشعر، أو يأتي مجال للحديث عن جدوى الشعر وآثاره الأخلاقية في حياة المسلمين العامة والخاصة، وذلك جانب آخر لم يدرس الدرس الواجب حتى الآن، وهو يلفت الانتباه إلى الدور الذي لعبته الطوائف الفاعلة في المجتمع الإسلامي، فيما يتصل بصياغة مفاهيم الشعر، وأعني طوائف الفقهاء والفلاسفة والمتصوفة فضلا عن اللغويين والمتكلمين وغيرهم"[16]، فيؤكد بذلك أهمية دراسة التراث النقدي والبلاغي على ضوء هذه الأنساق، مما

---

[14] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 48.

[15] نفسه، ص 307.

[16] جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995، صص 6 – 7 .

سيفضي لا محالة إلى ازدياد معرفتنا لهذا التراث، على أن ما ميز هذه الدراسة أن صاحبها كشف عن تأثير الفلسفة في تحديد مفهوم الشعر خصوصا أثر الفلسفة اليونانية، إضافة إلى علوم المنطق والسياسة والأخلاق، والكتاب حافل بإبراز هذه الصلة، وهذا ما يشير إليه جابر، "فإذا كانت خصوصية المادة تصل علم الشعر بعلوم اللسان، من حيث هو لغة، فإنها تصله بعلوم أخرى، لم يكن يعرفها العرب، هي علوم الأوائل أو الأعاجم، كما كان يطلق على المعارف الفلسفية، ومن هذه الزاوية يتصل علم الشعر بالمنطق، كما يتصل بالصناعة المدنية من حيث غاياته، وبالتالي بعلمي الأخلاق والسياسة"[17].

كما قام في هذه الدراسة على ربط أفكار النقاد القدامى بثقافة عصرهم والتيارات الفكرية والمناخ السياسي، ومختلف الظروف التي أفرزت أفكارهم وأعمالهم النقدية والبلاغية، فذهب إلى أن ابن طباطبا (322هـ) تأثر بالتيارات السائدة في عصره، تلك التيارات التي جعلت القرن الرابع يشهد أكثر من محاولة لإقصاء العلوم وتصنيفها، فلم يكن ابن طباطبا منفصلا عن هذه التيارات كما تأثر ببعض معطياتها واستعان بها على تحليل الظاهرة، وأشار إلى غير مرة إلى أقوال الفلاسفة وأفكارهم في الشعر والموسيقى والرسم واللذة...، ويعتبر أن ما يدعم هذا النضج عند ابن طباطبا يتمثل في كونه شاعرا وناقدا في الآن نفسه، وله صلة لا تنكر بالمتفلسفة في عصره، وبالتالي فإن نتاج هذه العوامل والظروف هو ما أفرز هذا الفكر المتميز عند ابن طباطبا في عيار الشعر. أما في القرن السابع، حيث ظهر مفهوم حازم القرطاجني للشعر ووظيفته، في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، فلا يمكن أن نفهم أو أن نحكم على أهمية ما أنتجه حازم بمعزل عن الظرف التاريخي الذي عاشه ذلك البلاغي العربي، أي في عصر عرف حملة عداء شديدة ضد الشعراء، قادتها طوائف من أهل النقل باسم التقوى والأخلاق، وفي مرحلة عرفت هوان الشعر بعد قرنين من وفاة آخر الشعراء الكبار، ويقول جابر "ولقد واكب جهده النقدي وعيه الحاد بأنه يعيش في مرحلة تخلف متعددة الأبعاد، على مستويات

[17] جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي ، ص 21.

الإبداع والنقد والفكر والسلطة السياسية في آن، وكان وعيه بانهيار الشعر. ولقد اختار العقل في عصر يعادي العقل، واختار الفلسفة في عصر يشك في الفلسفة، واختار الارتباط بالماضي المتقدم في عصر لم يعد يعي إلا التخلف، وكان عليه أن يطرح، متوحدا، قضية الشعر من جديد، في ضوء اختياره الخاص، وفي ضوء الظرف التاريخي المعقد الذي عاش فيه"[18].

- **دراسة التيارات الفكرية :**

إن المتتبع لكتابات جابر عصفور سيلاحظ مدى اهتمامه بدراسة التراث النقدي والبلاغي، في إطار نسقه الفكري الذي أفرزه، فغالبا ما يقرن اسم الناقد بمذهبه أو تياره الفكري كقوله : الجاحظ المعتزلي، أو عبد القاهر الأشعري، أو ابن المعتز الحنبلي ... بل اعتبر أن مجال النقد والبلاغة وظف إيديولوجيا لخدمة هذه التيارات الفكرية في سياق من التفاعل المتبادل، إذ يقول : "أضف إلى ذلك التفاعل بين النقد الأدبي القديم والتيارات الفكرية الكبرى التي تفاعلت وتحاورت، تضاربت وتصارعت، انتصرت وانهزمت، عبر الحقب التاريخية للتراث، في أنساق معرفية أساسية ترتبط بالنقل والعقل والحدس والتجريب، من حيث هي أدوات للمعرفة وعلامات على توجهاتها في الوقت نفسه، وبقدر ما كان التراث النقدي مشتبكا مع هذه التيارات كان منغمسا في صراعها، بل كان أداة من أدواته في غير حالة، ومن ذا الذي يستطيع أن يفصل نصوص الجاحظ والرماني والقاضي عبد الجبار والزمخشري عن سياقها الاعتزالي ... أو يفصل التضاد بين ابن قتيبة والجاحظ عن التضاد بين النقل والعقل"[19].

ومن هذا المنظور تناول جابر عصفور قضية اللفظ والمعنى، حيث أوضح أن الفصل بين الألفاظ والمعاني تبلور في بيئة المعتزلة، في معرض حديثهم عن المجاز، "وحاولوا من خلالها فهم النص القرآني فهما ينزه

---

[18] جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، ص 12.

[19] جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، صص 50و51.

العقيدة عن كل ما يتعارض مع أصل التوحيد الاعتزالي"[20]، ثم تناول هذه القضية عند الأشاعرة في مشكل خلق القرآن، وما ذهبوا إليه من التفرقة بين (المدلول) و(الدال)، ثم انتقل هذا التصور من دائرة الفكر الإسلامي وعلم الكلام إلى دائرة الأدب والنقد. ويعزو جابر عصفور وجود هذا التداخل بين هذين المجالين إلى أن المتكلمين كانوا أصحاب اجتهادات متميزة في اللغة والنحو "وهل يمكن للمعتزلة أن يمضوا في تأويل المجاز القرآني دون استناد إلى أساس لغوي مكين؟ وهل كان تفكير عبد القاهر، في كل ما خلفه من كتب في البلاغة والنحو – إلا نسيجا متداخل الخيوط ترجع بعض أسسه إلى أفكار المدرسة البصرية في اللغة، وإلى عقائد الأشعرية في الكلام، وإلى شروح أمثال ابن سينا في الفلسفة ؟"[21].

كما تطرق جابر عصفور لثنائيتي (الحضور) و(الغياب)، فمثلا تشير نصوص ابن المعتز إلى نصوص وكتابات ما يشبهها أو يقاربها داخل النسق المعرفي من كتابات أهل النقل، في الحين نفسه تحيل إلى ما يناقضها ويعارضها في الأنساق المعرفية المضادة حيث كتابات أهل العقل خصوصا المعتزلة "على نحو لا يكتمل معه فهم الحاضر في النص المقروء إلا بوصله بقرينة الغائب الذي يحدده، ويكشف عن دلالته، من منظور التشابه أو التضاد"[22]، وهكذا يعتبر أن التراث النقدي ليس بنية منغلقة ومكتفية بذاتها، بل هي على العكس من ذلك منفتحة على أنساق معرفية أوسع.

---

[20] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، ص 314.

[21] نفسه، صص 102– 103.

[22] جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 68.

من خلال ما تقدم، فإن قراءة جابر عصفور للتراث النقدي والبلاغي اتسمت بالنسقية، تضع في الحسبان علاقة هذا التراث ببقية الحقول المعرفية الأخرى، فالنص التراثي ليس بنية مغلقة منعزلة عن نفسها، بل هو بنية مفتوحة تستحضر مختلف الأنساق التي ساهمت في إنتاج تلك النصوص. وعلى الرغم من أن البعد الزمني يقف حائلا بين القارئ والتراث، فإن القارئ عندما يبسط يده للتراث لمصافحته، فإنه في الحقيقة يبعثه من مرقده، والنص الذي يكتفي بالقراءة الواحدة يتوقف عن الاستمرار والتجديد. فالنصوص التراثية لا تقرأ ولا تؤول إلا من حيث هي نصوص قديمة تتضمن شحنة تاريخية، نشأت وتطورت وفق نسيج من العلاقات المعرفية والتاريخية في سياق ثقافي وفكري وسياسي، وإغفال هذه الظروف من شأنه أن يؤدي إلى قراءة ملتبسة لهذا التراث، كما أن القراءة التي لا تنظر إلى النص التراثي في شموليته وسياقه ولحظاته التاريخية، هي قراءة لا تستهدف من هذا التراث إلا الانتقاء.

مراجع البحث :

- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1992.
- جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 1994.
- جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995.
- حسن حنفي، قراءة النص، مجلة ألف، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 2، 1993.
- حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003.
- قاسم المومني، علاقة النص بصاحبه ،دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 25، أبريل 1998.
- محمد مبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1999.
- **Umberto Eco**, **Les limites de l' interprétation**, **traduction de Myriem Bouzaher**, **Bernard Grasset**, **1992** .